المحاضرة (3)

أسباب نشوء اللهجات

ليست الكائنات الحية وحدها هي التي تتصارع على البقاء، فاللغات –كذلك– يحدث بينها ما يحدث بين الكائنات الحية من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعي وراء الغلب والسيطرة، ويحدث نتيجة عن هذا الصراع والاحتكاك تشعّب اللغات وتفرّعها.

ويبين الدكتور على عبد الواحد وافي أن العامل الرئيسي في تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها، غير أن هذا العامل لا يؤدي إلى ذلك بشكل مباشر، بل يتيح الفرصة لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى هذه النتيجة، وباستقراء هذه العوامل في الماضي والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى ما يلي:

1– عوامل سياسية: تتعلق باستقلال المناطق التي انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات، وذلك أن اتساع الدولة وكثرة المناطق التابعة لها واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها... كل ذلك يؤدي غالبًا إلى ضعف سلطانها المركزي، وتفككها من الناحية السياسية، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض. وغنيٌّ عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدي إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية.

2– عوامل اجتماعية نفسية أدبية: تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق النُّظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان، فمن الواضح أن الاختلاف في هذه الأمور يتردد صداه في أداة التعبير.

3– عوامل جغرافية: تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها ... وما إلى ذلك، وفيما يفْصل كل منطقة عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات... فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي عاجلًا أو آجلًا إلى فروق وفواصل في اللغات.

4- عوامل شعبية: تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها، فمن الواضح أن لهذه الفروق آثارًا بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات.

5- عوامل جسمية فيزيولوجية: وتتمثل فيما بين سكان المناطق من فروق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق، فمن المحال مع فروق كهذه، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمدًا طويلًا.

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل إلى جماعات متميزة، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض في شئونها السياسية والاجتماعية، وفي خواصها الشعبية والجسمية والنفسية، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية، كل ذلك يوجّه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها، ويرسم لتطورها في النواحي الصوتية والدلالية وغيرها منهجًا يختلف عن منهج أخواتها، فتتعدد مناهج التطور اللغوي حسب تعدد الجماعات، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلّا لأهلها[1].

وإن من بين العوامل التي أدت إلى اختلاف اللهجات العربية الحديثة هو اختلاف اللغات التي اصطدمت بها اللغة العربية أثناء انتشارها، لأن اللغة العربية التي جلبها العرب الفاتحون معهم والمهاجرون من بعدهم وصلت في صورتين: "إحداهما موحدة منسجمة وتلك هي لغة الآثار الأدبية والقرآن الكريم، والأخرى تشتمل على تلك الصفات الكلامية التي امتازت بها لهجات القبائل المتباينة"[2].

وهذه اللهجات المختلفة التي انتقلت مع المسلمين من شبه الجزيرة العربية، اصطدمت بأخرى مختلفة عنها تماما، مما أدى إلى اصطدامها واحتكاكها بها، وهنا كان لابد من صراع

---

[1] - علم اللغة، وافي ص175، 176.

[2] - في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، ص26.

بين اللهجتين؛ لهجة السكان الأصليين ولهجة الفاتحين، وقد أدى إلى سيادة إحداهما وسقوط الأخرى، ولكن هذه الأخيرة لم تفنَ إلا بعد أن تركت بعض الآثار في اللهجات العربية على الأقل من الناحية الصوتية والمعجمية، فلقد دام صراع القبطية مع العربية ثلاثة قرون، أدت في الأخير إلى انتصار العربية، لكنها خرجت من هذه الاحتكاكات ممثلة بآثار القبطية، الأمر نفسه مع الآرامية في معظم بلاد العراق والشام، والأمازيغية في شمال إفريقيا، حيث تأثرت العربية ولهجاتها في كل منطقة من هذه المناطق بلهجاتها القديمة، يقول الجاحظ: "وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر"[1].

أما هذه الصفات الصوتية التي أثرت في اختلافات اللهجات العربية الحديثة، فلم تتعد:

1. الاختلاف في مخارج بعض الأصوات.
2. الاختلاف في وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات.
3. الاختلاف في مقياس بعض أصوات اللين[2].
4. التباين في النغمة الموسيقية للكلام.
5. الاختلاف في قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض[3].

وأرى أن من بين العوامل الأساسية التي أدت إلى اختلاف اللهجات في الوطن العربي قديما وحديثا هو أن هذه اللهجات العربية المختلفة هي في حقيقتها منبثقة عن لهجات عربية قديمة، فالعرب في قبائلهم كانوا مختلفي اللهجات في مستويات لغوية مختلفة، صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا، ولذلك يقع الآن الاختلاف بين لهجات أهل الحجاز عبر أقاليمهم

---

[1] – البيان والتبيين، الجاحظ 1/ 25 .

[2] – أصوت اللين: اصطلاح علمي لما يعرف بالحركات طويلها وقصيرها. ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، 1975م، ص29.

[3] – في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ص19.